

جناية أحمد أمين

على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

- ١٧ -

أراد صاحبنا أن يقسم الأدب إلى قسمين : أدب تركيبي وأدب تحليلي ، ثم بنى على هذا التقسيم أحكاماً خوطبى ، كمادته في كل ما يتناول من الشؤون الأدبية

والأفنى الذي يصدق أن التشبيهات تُعاب بحجة أنها صور تركيبية ، وبحجة أن الأمم لا تهتم بالتشبيهات إلا في حالتها الفطرية ؟ إن أحمد أمين أفرط في تحقير التشبيه أقبح إفراط ، ونسى أنه عملية ذهنية تشهد بقوة الذكاء ، ودقة الملاحظة ، والقدرة على ضم الصور بعضها إلى بعض

ولو جازينا أحمد أمين في أحكامه الجائرة لأغضينا عن جمال التصوير في قول ابن المعتز :

لا مثل منزلة الدورية منزل يا دار جادك وابل وسفالك
بؤساً لدهر غيرتك صروفه لم يح من قلبي الهوى ومحاك
لم يحل لليتين بمدك منظر ذم النازل كلهن سواك
أى المعاهد منك أدب رطبه ممسك بالأصال أم مفداك
أم برد ذلك ذى النصوص وذى الجنى

أم أرضك المشاء أم ريك
فكأنما سحبت مجامر عنبر أو فت فار المسك فوق ثراك
وكأنما حصباء أرضك جوهر وكان ماء الورد دمع نذاك
وكأنما أيدى الربيع نحيمة نشرت ثياب الوشم فوق ريك
وكان درعا مفرغا من فضة ماء القدير جرت عليه صباك
وقد أشرنا من قبل إلى أن أحمد أمين يرى التشبيه ضرباً من الألاعيب ، وليس من الكثير عليه أن يرى ذلك فقد رأيتم فيما سلف وسترون فيما بعد أن للرجل طريقة في الفهم تخالف طريقة أهل الأدب

وأدعم هذا الهجوم بالشاهد الآتي لتسقط حجة من يدعون أننا نظلمه ونقتاسى مكانته الأدبية

قال أحمد أمين إن الأدب العربي جنح إلى التركيب وغفل عن التحليل ، وكان دليل ذلك عنده « أن علماء البلاغة العربية عُتسوا بالإيجاز أكثر من عنايتهم بالإطناب ، وأعجبوا بجوامع الكلم أكثر من إعجابهم بالكلام الطويل اسبسط ، بل إن بعضهم كأبي هلال العسكري فهم أن الإطناب تكرر المعاني وطول الألفاظ ، وقال : « إن كتب الفتوح وما يجري مجراها مما يقرأ على عوام الناس ينبغي أن تكون مطوالة مُطنباً فيها » فكأنه يريد أن يجعل الإطناب أدب العامة ، والإيجاز أدب الخاصة »

ذلك كلام أحمد أمين ، وهو يدل على أنه لم يفهم كلام أبي هلال وإليك البيان :

إن كلام أبي هلال معناه أن الكلام له مقامات ، فإن خاطبت رجلاً ذكياً فأوجز : لأن الإطناب في مخاطبة الأذكىاء يمتد من التطويل وهو فضول ، وإن خاطبت الجمهور فأطنب : لأن الجمهور مكون من عناصر كثيرة تتفاوت في الفهم والتمييز والإدراك ، والحزم يوجب أن نطنب حين نخاطب الجماهير لنصل إلى إفهامهم ما نقصد إليه من المعاني والأغراض

ذلك معنى كلام أبي هلال ، فهو لا يريد أن يقول بأن الأدب يكون أدب خاصة عند الإيجاز وأدب عامة عند الإطناب ، وإنما يريد أن يحدد واجب الشاعر والكاتب والخطيب ، ودليل ذلك أن علماء البلاغة يجمعون على أن الإيجاز في مخاطبة العامة خطأ ، والإطناب في مخاطبة الخاصة ضياع

وعلى ذلك يكون شرف البيان موقوفاً على فهم مقتضيات الأحوال ، فالأدب الذي يوجز حين يخاطب الخاصة ليس أعلى منزلة من الأدب الذي يطنب حين يخاطب العامة ، كما يتوهم أحمد أمين الذي يكيل الحقائق الأدبية بأوسع السكايل ، مع أنها لا توزن إلا بأدق الموازين

فن أين فهم أحمد أمين أن الإطناب يراه العرب من

الإنجليز عطفهم عليه حين رأوه يبكي جهوده الضائعة في الدعوة إلى السلام

وكان العرب أمة تفهم أقدار الرجال إلى عهد الحجاج : فقد كان مالك بن دينار يظهر عطفه على الحجاج كما أعلن الإنجليز عطفهم على تشمبرلن . كان مالك بن دينار يقول : ما سمعت الحجاج يشكو أهل المراق إلا رحمة منهم !

إن أحمد أمين يقول إن كل جملة من كتاب عمر بن الخطاب وخطبة زياد وخطبة الحجاج يصاغ منها عند التحليل صفحات ، وبعد ذلك شاهداً على ميل العرب إلى الأدب التحليلي ، فما الذي يقوله أحمد أمين في خطاب تشمبرلن إلى الألمان ؟

إن خطاب تشمبرلن قد يصاغ منه عند التحليل مجلدات لا صفحات ، ومع ذلك لم يقل أحد بأن هذا الخطاب شاهد على أن الإنجليز لا يحسنون تحليل المعاني والأغراض

إن المستر تشمبرلن يفهم ما كان يفهمه زياد والحجاج هو يفهم أن الجمل القصيرة المركزة المحكمة هي التي تبقى في الأذهان والقلوب ، ويدرك أن التهديد الذي يصبه الخطيب في جملة أو جملتين ، والسخرية التي يصوغها في كلمة أو كلمتين ، أبقى أثراً من الكلام المطول البسوط الذي يصاغ في صفحات أميرف أحمد أمين ما الذي سطره الفرنسيون على مدخل الباثيون ؟

سطروا هذه العبارة الموجزة : Vaincre ou mourir

وهي عبارة تُشرح في مجلدات لا صفحات

أيعرف أحمد أمين الجملة المسطورة على باب قصر التين ؟ هي الجملة القليلة اللفاظ الكثيرة المعاني ، الجملة التي تقول : « العدل أساس الملك »

وهي أنفع من ألف كتاب في شرح مزايا العدل وأثره في حياة الملك

أيذكر أحمد أمين الآية المكتوبة في جميع المحاكم المصرية فوق منصة القضاء ؟

المتبدلات حتى يحكم بزهدهم في الأدب التحليلي الذي يستوفى عناصر الموضوعات ؟

وعاب أحمد أمين على العرب أن يهتموا بجمع الحكم والأمثال وعند ذلك نتيجة حتمية للأدب التركيبي ، ولو كان أحمد أمين من المطلعين على الآداب الأجنبية لعرف أن الاهتمام بجمع الحكم والأمثال هو من الأغراض التي يهتم بها أكثر الشعوب . ويقول أحمد أمين إن « الخطب والكتب في كثير من الأحيان عبارة عن جمل قصيرة مركزة محكمة ، كالذي نلاحظه في كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء وخطبة زياد وخطبة الحجاج ، ولو تناول الأدب التحليلي كل جملة من هذه الجمل لصاغ منها صفحات »

فهل يدرك الأستاذ أحمد أمين وجوه الخطأ في كلامه هذا ؟ إن خطاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري من أنفس الخطابات في تحديد أصول القضاء ، فهل كنت تنتظر أن يؤلف عمر بن الخطاب كتاباً في مجلد أو مجلدين يشرح فيهما لأبي موسى فروع القضاء ؟

وما الذي تعيب على خطبة زياد وخطبة الحجاج ؟ أتعيب عليهما الإيجاز ؟ وما الموجب للاطناب وقد وقعت الخطبتان على رموس من سمعها وقوع الصواعق ، وظلنا حديث الناس من جيل إلى جيل ؟

ما رأيك في المستر تشمبرلن وقد أتى خطبتين وجه إحداهما إلى مواطنيه الإنجليز ، ووجه الثانية إلى أعدائه الألمان ؟ ألا ترى أن هاتين الخطبتين أوجز من خطبتي زياد والحجاج ؟ هما أوجز بلا جدال

فهل سمعت أن نافداً أديبا في فرنسا أو إنجلترا عاب على المستر تشمبرلن أنه أوجز ولم يطلب ؟ هل سمعت ؟ هل سمعت ؟

وا أسفاه !!

إن المستر تشمبرلن حوله أمة تفهم أقدار الرجال ، فقد أعلن

هي كلمة القرآن المجيد :

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

فهل يمد ذلك الإيجاز من الخطأ ؟ أم يراه غاية في تذكير الناس بأصول الحقائق ؟

يجب أن يعرف الأستاذ أحد أمين أن العرب لم يستهينوا بالأطناب ولم يمدوه من المبتذلات حتى يحكم بأنهم يرونه من أدب المواقف لا أدب الخواص . فالأطناب أسلوب من البيان يقصد إليه الشاعر والكاتب والخطيب حين يدعو المقام إليه ، وهو أسلوب شريف لم يحتقره أحد من أهل البلاغة كما توهم أحد أمين وهل كانت سائر الكتب على غلط كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري ؟

أين هو من الكتب المطولة التي كان يبعث بها علي بن أبي طالب إلى عماله في الأقاليم البعيدة والأقطار القصية^(١) ؟ وأين هو من كتب اليهود التي سارت بعد ذلك من تقاليد الحكومة الإسلامية ؟

وهل كانت سائر الخطب خطبة زياد وخطبة الحجاج ؟ أين هو من الخطباء الطنيين الذي تحدث عنهم الجاحظ في البيان والتبيين ؟

أين خطب سحبان الذي كان يهدر بها من الظهر إلى الأصيل ؟ أين أحاديث سمصمة بن صوحان ؟ أين مشاورة المهدي لأهل بيته ، وهي من أنفس الذخائر الأدبية ؟

وتحدث أحد أمين عن الإيجاز الذي التزمه مؤرخو العرب في كتب التراجم وعده من عيوب السليقة العربية ، فهل كان ينتظر أن تصاغ تلك التراجم على نحو ما نصنع اليوم ، وعلى نحو ما يصنع الأوروبيون ؟

كان هذا ممكناً لو أن المؤرخ العربي كان يقصر جهده على الترجمة لجلين أو عشرة رجال ، ولكن هذا كان من المستحيل على من يترجمون لشعرات أو مئات أو ألوف . وما الذي قرأ أحد أمين من كتب التراجم ؟

(١) قد يقال إن كتب علي بن أبي طالب ويهوده إلخ مما قد تطرق اليك في نسبتها إليه ، وهول إنها تدل على تصور العرب لما كان يصدر من الخلفاء من كتب ويهود ، فهي على فرض وضعها تؤيد حجتنا

هل عرف كتب الطبقات : طبقات النحويين واللغويين والفقهاء والصوفية ؟

إن كان عرف تلك الكتب فليحدثني كيف كان يمكن لرجل مثل السبكي أن يصنع أكثر مما صنع في طبقات الشافعية ؟ وليحدثني كيف كان يمكن لأبي الفرج أن يصنع أكثر مما صنع في كتاب الأغاني ؟ وليحدثني كيف كان يمكن لياقوت أن يصنع أكثر مما صنع في كتاب إرشاد الأريب ؟ وليحدثني كيف كان يمكن للمقري أن يصنع أكثر مما صنع في نفع الطيب ؟

لو أن هؤلاء الرجال ترجعوا للشعراء والكتاب والخطباء والمؤلفين على نحو ما نصنع اليوم لأضاعوا علينا فرصاً لاتعود أبد الدهر ، لأنه كان يستحيل عليهم أن يحدثونا عن جميع تلك الطوائف ، وكانت مهمهم ستقف عند الترجمة لعدد قليل من أصحاب المواهب في الأقطار العربية والإسلامية

فا الذي يستفيد أحد أمين حين يفض من أقدار أولئك الرجال ، وهو من فضلاتهم يعيش ؟

هل يعرف كم أُلوفاً من الأدباء والمؤرخين انتفموا بجهود مؤلف الأغاني ؟

هل يعرف أن ابن خلكان الذي احتقره وازدراه أدى مهمة يعجز عنها الأكترون ؟

إن أحد أمين يعيش في عصر المطبعة ، والسبيل أمامه ممهدة لنشر ما يشاء ، فما الذي صنع ، وما الذي صنع زملاؤه في الترجمة لأعلام العصر الحديث ؟

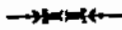
ليت دنيانا الحاضرة تعرف رجلاً مثل ياقوت يترجم لأقطاب الفكر والبيان في مصر والمغرب واليمن والحجاز والشام والعراق ، ليت ثم ليت ! فأحمد أمين نفسه لا يعرف شيئاً من التيارات الفكرية في البلاد العربية والإسلامية لهذا العهد ، وهو يحتاج إلى تعالبي جديد يعرف الناس بفضل عصره كما صنع أبو منصور حين ترجم لأقطاب القرن الرابع

فا هذه النمطية على أسلافكم بأدباء آخر الزمان ؟ وبأي حق تتجنتون على رجال أدوا واجهم أحسن أداء وهم في قلة من أسباب الرزق ؟

إن أحميد أمين لم ير بلداً غير مصر إلا وهو مكفي المؤونة

هل آن للأزهر أن يبعث؟

للأستاذ محمد يوسف موسى



تصفحت بعض أعداد الرسالة النراء التي صدرت وأنا بفرنسا صيف هذا العام ، فرأيت في أحدها كلمة عن إهابة الأستاذ الكاتب على الطنطاوى بملء الأزر لمساعدته في تأليف كتاب عن الدين الإسلامى ، يفيد منه العامة والخاصة والعرب والمجهم والمسلم وغير المسلم ، وأن هذا الاستنجد لم يجد له سميماً فضاع صرخة في واد كما يقولون

ليطمئن الأستاذ نفسه فليس إلى بلوغ ما يريد من سبيل إلا إذا اعتمد على نفسه وأمثاله من الكتاب الذين بلذ لهم أن يقفوا بعض جهودهم على الدين ونشره ، ويجدون التعب في ذلك عذبا جيلا . أقول ذلك وأنا واثق مما أقول ؛ فقد دهوت في أوائل هذا العام النصرم إلى مثل ما يدعوا إليه الآن فا وجدت غير التشبيط وأمثال هذه الكلمات : خلّ عنك ، الله قد وعد بأنه سيظهر الإسلام على الدين كله ، وهـ ليس في حاجة إلى مثل جهودك وجهودنا ؛ وإلى القراء الأمر على جليته :

نزلت في صيف العام الساضى بفرنسا بمائلة محترمة بمدينة « ليون » ، وتناصت بينى وبينها الروابط لتقارب في العاطفة وتشابه في اليول . ولأنها عاتلة محافظة ، أعجبتني قياى ببعض ما يجب على لله من الصلاة وتلاوة القرآن ؛ فكانت أحاديثنا في أوقات الفراغ تدور كثيرا على الإسلام وما فيه من آداب عامة ، وشرائع في مختلف مناحى الحياة تصلح للناس جميعا . وبلغ بهم الأمر أن كانوا يطلبون منى تفسير بعض الآيات التي تشتمل على تلك الآداب والتشريعات ، والآيات التي تضمنت أخبار عيسى عليه السلام وأمه المذراء .

وبديهي أن ذلك كان يسرنى ، وكنت أعمل على تحقيقه جهدى . ثم بدا لى فأعطيتهم القرآن مترجما للفرنسية ترجمة مناسبة تقريرا .

بأموال الحكومة المصرية ... فهل يعرف كيف كان يصنع رجل مثل باقوت وهو يطوف بالشرق والمشرق وعلى ظهره حقيبة يحمل فيها ما يتجرب به ليعيش ؟

وأبو هلال الذي يستشهد أحمد أمين بكلامه في الإيجاز والإطناب ؟

أبو هلال هذا لم يعرف سهولة العيش التي عرفها أحمد أمين ، فقد قست عليه الأقدار حتى اضطرته ، وهو من نوابغ الأدباء والمؤلفين إلى كسب قوته من مزاوله التجارة بالأسواق ، وهو الذى يقول :

جلوسى في سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأناام قروء ولو اضطر أحمد أمين - لا قدر الله ولا سمح - إلى كسب رزقه من مزاوله التجارة في الأسواق لتضرب معين فكره وشغل عن مضغ الكلام في أدب المدة وأدب الروح ...

أحب أن أعرف ما هى الغاية من تحقير ماضى الأمة العربية ؟ أحب أن أعرف لأنى غرض شغل أحمد أمين نفسه بالنص على أن عبد الحميد الكاتب فارس الأصل ؟

هل يريد القول بأن الأدب التحليلى وصل إلى العرب من أدباء ليسوا من الأرومة العربية ؟

وهو كذلك !

ولكن مارأيك إذا حدثتك بأن الحضارة العربية هى صاحبة الفضل على عبد الحميد وابن المقفع وسائر من نبغوا في الممالك الإسلامية وهم من أصول أجنبية ؟

إنك تعرف أن أعظم ما بقى من آثار ابن المقفع هو الحكم المشوبة في الأدب الصغير والأدب الكبير ، وهى حكم يغلب عليها الإيجاز ، فهل تمدد الإيجاز من عيوب تلك الحكم الخوالد بحجة أن الإيجاز من خصائص البلاغة العربية ؟

إنك الله في نفسك ، أيها الصديق ، فلنناس أذواق وعقول ويقول إنك لا تعرف في العربية غير شاعر واحد هو ابن الرومى

وكاتب واحد هو ابن خلدون ... وسترى في الأسبوع المقبل كيف نلتقى في تحرير هذا الموضوع الدقيق .

زكى مبارك

« لعبد شجون »